النقد الماركسي و سوسيولوجيا الأدب

1-تقديم:

طرح النقد الماركسي آراءه حول الثقافة و الأدب و علاقتهما بالمجتمع في منتصف القرن التاسع عشر و كان اهتمام "ماركس" منصبا حول الأعمال الخالدة و قيمتها الفنية و سر جمالها ،كما كان اهتمامه واضحا بتغيير النظر إلى الفلسفة انطلاقا من كون الوعي ليس " هو الذي يحدد وجودهم،بل إن وجودهم الاجتماعي هو الذي يحدد وعيهم "[1].

وقد أراد من خلال هذه الفلسفة تغيير نظرة الإنسان إلى ما يحيط به تغييرا يمس كل الجوانب الحياة بما فيها الفلسفة،والاقتصاد والأدب ، وكانت حجته أن الفلسفة قبلة مبنية على التأمل ،فبقيت بعيدة عن الواقع الجوهري والفعلي للإنسان ،بمعنى أنه يجب على الفلسفة "أن تشغل بقضايا الواقع المادي ،وقد انطلق ماركس من أفكار "هيجل" الذي رآه أول من رأى أن مسيرة التاريخ هي تكشف جدلي تدريجي لقوانين العقل و أن الوجود المادي تعبير عن ماهية روحية غير مادية "[2].

رأى "هيجل" و "ماركس" أن الإنسان كان يربط بين العقل المادي والعمل العقلي ،ولكن هذه النظرة التي حققت له المتعة و الجمال قضت عليها الرأسمالية ،لذلك راح ماركس يتأمل المقولة الهيجلية التي تقول:"إن العقل ينبغي النظر إليه على أنه هو الدليل الذي لا يخيب الحياة الإنسانية"[3].

أراد ماركس أن يستبدل الفلسفة بأفكار تقوم على أن الأفكار هي حصيلة الوجود الاجتماعي للإنسان، و بالتحديد فإن المصالح المادية الخاصة بطبقة اجتماعية تسيطر على المجتمع هي المتحكمة في روتينية الأشياء .

---

[1]-رومان سالدن : النظرية الأدبية المعاصرة ، ترجمة جابر عصفور ، دار قباء للطباعة و التوزيع ، القاهرة ، مصر ، ط1 ، 1998، ص47.

[2]-المرجع نفسه ، ص47.

[3]-المرجع نفسه ، ص47.

أراد ماركس القول أن التغيير يبدأ على مستوى الأفكار ثم يأتي التغيير الاقتصادي داخل المجتمع و سيكون لهذا التغيير أثرا كبيرا على الأدب ،لماذا؟ لأنه يرى الفلسفة بإمكانها أن تعكس "الواقع الموضوعي المستقر في وعي الإنسان،وهذا الواقع يتغير باستمرار على مر التاريخ "[4].

إذن بإمكان الأدب أن يعكس الواقع ،و الأكثر من ذلك باستطاعته تصوير ما يدور في المجتمع من صراع طبقي ،لأن له هدف ،وهو تصوير " المجتمع الرأسمالي القائم على الاستغلال و الظلم و الكذب تصويرا ثقافيا بهدف تغيير"[5].

فالأدب زيادة على أنه يؤدي وظيفة جمالية ،فهو يؤدي وظيفة مادية فيصبح عملا كبقية الأعمال الأخرى يعبر عن المشاكل الاجتماعية ، و يكشف الصراع الطبقي،و يعري الواقع ؛ واقع المجتمع الرأسمالي القائم على الظلم و الاستبداد.

أصبح الأدب بالمفهوم الجديد للماركسية أكثر ارتباطا بالواقع الاجتماعي.كان هدف الماركسية بهذا الأفكار هو تغيير النظرة إلى المجتمع الذي اعتبرته "كيانا ملموسا"محوره الأساسي بشر يعيشون على الأرض وتربطهم مع روابط وثيقة منها :المصالح والعادات والتقاليد و الدين واللغة،و المصالح التي تجمع هؤلاء البشر ليست بالضرورة مصالح متجانسة تماما أو متطابقة دائما ،وإنما هي مصالح متعارضة رغم أنها تميز كل مجتمع عن المجتمع الآخر"[6].

يتكون المجتمع عند "ماركس" من مجموعة من الطبقات المتعارضة،وهذا المجتمع مقسم إلى بنية تحتية و بنية فوقية، الأولى هي الاقتصاد تشمل قوى الإنتاج (البشر) ،وأدواته (الوسائل). والثانية هي (المؤسسات السياسية و التشريعية والتنفيذية والتعليمية و الإعلامية و الدينية.كما تشمل القيم و العادات والتقاليد و الفنون و العلوم و الآداب "[7].

---

[4]- محمد على البدوي ، علم اجتماع الأدب (النظرية و المنهج و الموضوع) دار المعرفة الجامعية ، بيروت ، لبنان ، 2002، ص147.

[5]- المرجع نفسه، ص48.

[6]- روجيه غارودي : ماركسية القرن العشرين ، ترجمة نزيه حكيم ، منشورات دار الآداب ، بيروت ، لبنان ، ط4، 1978، ص21.

[77]- المرجع نفسه ، ص22.

يظهر الأدب من هذه المؤسسات كأهم عنصر ،وقد نظر إليه ماركس و أنجلز من ثلاث زوايا:

1) الأدب هو أحد المكونات الرئيسية في البنية الفوقية للمجتمع،ويعكس البنية التحتية.

2) الأدب له القدرة على منافسة الواقع نقديا.

3) الأدب ظاهرة تاريخية تطورية جدلية.

بالنسبة للزاوية الأولى رأى الفيلسوفان أن الأدب عليه أن يعكس البنية التحتية ،وذلك بأن يكون خادما للطبقة التحتية،فيجب على الأدب أن يعبر عن إيديولوجية هذه الطبقة ،بمعنى أن الفلسفة تقوم على ضرورة أن تعكس الطبقة الأولى الثانية ؛ بمعنى عندما تكون مثلا ظروف الإنتاج جيدة فإن ذلك ينعكس على الأدب الذي يكون جيدا و العكس صحيح ؛ بمعنى آخر أن الأدب له القدرة على تعبير التناقضات التي يمكن أن توجد على مستوى البنية التحتية،و بإمكانه التصدي لها عندما يكون هناك وعي من قبل البشر ، فهم عندما يلاحظون وجود تناقض داخل البنية التحتية يناضلون ضده.

لذلك استطاعت الأعمال الأدبية الخالدة تقديم رؤى و مواقف مستقبلية ،استطاعت أن تغير الواقع فهي لم تكن مجرد ناقل للبنية التحتية فحسب و إنما كانت نقدا لها،ويقف في طليعة العظماء الروائي "بلزاك" "الذي كان مضطرا إلى أن يسير ضد أهواء طبقته و انحيازاتها السياسية ،أي ضد حنينه لنظام القديم،وأن يصور البورجوازية الصاعدة في هجماتها التقدمية على المجتمع النبلاء"[8].

2-النقد الماركسي وهيمنة الإيديولوجيا:

ربط "ماركس" بين الفن والعمل ،فقد "ولد الفن من العمل ولم ينفصل عنه في يوم من الأيام ،والتطور الجميل من النافع و لم يتناقض معه عبر التاريخ ،كذلك فإن العمل صاحبته المعاناة الجمالية،وتطور معه الشعور الجمالي لدى البشر وهو الذي طوره و أغناه..."[9].

---

[8]-إليكس كالينوكس :الماركسية و النقد الأدبي ، ترجمة هاني حلمي حنفي ضمن موسوعة كمريدج في النقد الأدبي ، مراجعة رضوى عاشور ، ص125.

[9]-المرجع نفسه ،11.

هذه العلاقة قضى عليها النظام الرأسمالي من خلال مبدأ الفردانية، فقد قضى على الرابطة الروحية بين المبدع و ما يبدعه ،وخاصة بين العقل و العمل اليدوي ، فالفصل بينهما أدى إلى القضاء على الجمال الذي كان عبارة عن موقف و رؤية من العالم ،رؤية كانت تأتي بعفوية و تلقائية نتيجة غياب الاستغلال .رؤية صادقة تعبر عن عمق روحي.

إذن تقوم الرؤية الفنية عند الماركسيين على ضرورة ربط الفن بأشكال اجتماعية وتاريخية ،ترى أن الفن انعكاس لنمط الإنتاج و علاقته في المجتمع بعينه ، ومن هنا يمكن للفن أن يكتسب قيمته و بالتالي بقاءه و خلوده،فلماذا مثلا لازلنا نعجب بأشعار هوميروس،و ملحمة قلقامش،و إلياذة فرجيل،و أشعار الجاهلين لأنها ببساطة تتسم بروح عميقة وشاملة.

3-النقد الماركسي و إشكالية الواقع:

لم تكن الكتابات الأولى تبشر بفكرة الانعكاس المباشر ،بل كانت تنظر إلى العملية الإبداعية على أساس أنها عملية معقدة،و تتمتع بشيء من الاستقلالية عن التحيزات السياسية ،الإيديولوجية .

يذهب "انجليز" إلى أنه" كلما كانت آراء المؤلف مخفية كان ذلك أفضل للعمل الفني"[10].

فبلزاك العظيم لم يكن بوسعه أن يضل سجين المجتمع الأرستقراطي، فنزع إلى تعرية طقوسه ،و الكشف عن تناقضاته ، بل و التبشير بقرب سقوطه...[11] .

و قد أبان "بيلخانوف" عن الهوة التي تفضل بين "بلزاك" و الرومانسيين أولئك الذين يتناولون الأهواء البشرية في شكلها الأكثر تجديدا .أما "بلزاك" فقد تناول الأهواء في سياق تحولات المجتمع البرجوازي،وبذلك صار واقعيا ،وعد إنتاجه مصدرا هاما لدراسة سيكولوجيات المجتمع الفرنسي.إنه أب الواقعية الفرنسية[12].

---

[10]-المرجع السابق ، ص16.

[11]-المرجع نفسه ، ص16.

[12]-المرجع نفسه ،ص17.

كان النقد الماركسي مهما بكتابات الواقعية البورجوازية في القرن 19م مثل: "بلزاك" و "فلوبير"، و"ستندال" ،و "تولستوي"، ممن كشفوا عن تناقضات الحقبة البرجوازية ،و لم يتناول النقد الماركسي روائي الحديث مثل جويس،وكافكا ، وبروست إلا من منظور الرؤية السلبية التشاؤمية، ولقد تلقى جراء هذا الإهمال نقدا لاذعا ،إذ أن الفن لا يعكس لنا مباشرة طبيعة النظام الاجتماعي.

4-الماركسية و الاتجاهات الأدبية و النقدية [13].

أ- نظرية الفن للفن :

من أكثر التيارات التي حظيت برؤية عنيفة من قبل الماركسيين ،فقد ذهب "بلينسيكي" إلى أن النظرية لها الحق في الوجود ،إلا أنها فكرة مبالغ فيها ،ويذهب إلى القول أنها نشأت بين أحضان فكر حالم،وليس في أحضان شعب عملي ،لذلك فهي فكرة وهمية و مبالغ فيها ،و بالمقابل فإن فكرة الفن للفن ظهرت كرد فعل ضد الميول السياسية والاجتماعية للرومانية ، و تعبيرا عن النطاق بين حياة التكسب و الاتجار،وبين العواطف الجامحة لطبقة البرجوازية .

ب-الرمزية:

كانت في نظر "تروتسكوي" جسرا فنيا امتطته الأنتلجاسيا للوصول إلى الصوفية ،إنها التعبير عن الهروب من الواقع بواسطة بناء عالم ما ورائي ،وتكريس الهيمنة و السلبية.

ج-الشكلانية:

لم يرفض "تروتسكوي" الطرح الشكلاني و إنما اعتبره مفيدا لشاعر و الكاتب بوجه عام ،وقد اعتبر أن شوكلوفيسكي هو منظر المستقبلية التي عادت الماركسية وزعيم الاتجاه الشكلي من حيث أنه كان دائم الترويج لفكرة أن الفن هو ابتكار مستمر لأشكال صافية متكيفة بذاتها .و قد انتهى به الأمر إلى أن الشكلية هي أول مدرسة فنية عملية.

---

[13]-ينظر المرجع نفسه من ص20 إلى ص23.

حمل "ماركس" و "انجليز" العداء لقضية فصل الشكل عن المضمون ،وهذا طبيعي جدا لأن الفلسفة الماركسية تقوم على المضمون الذي وجب أن يكون في خدمة الطبقات الاجتماعية ،و لذلك فهم رفضا الفصل بينهما و عزلهما عن بعضهما البعض.

د–علم الاجتماع:

لم يجد الماركسيون مبررا لقيام علم الاجتماع ،طالما أن الماركسية تقدم نظرا شاملا لحركة المجتمع و آليات تحوله و القوى المتحكمة في سيرورته ،و لم يتقبل الكثير فكرة قيام علم اجتماع الأدب،فقد بدأ لهم أن هذا المنهج هدفه الشكر لإنجازات الكبرى التي قدمتها الماركسية في مجال علاقة الأدب بالواقع.

هـ–التحليل النفسي:

أخذت الماركسية على التحليل النفسي خضوعه لمقولة الفردية ،وبذلك فهو امتداد لعصر التنويه الذي يعتبر الفرد فيه هو محور العمل و الفكر والسلوك ،ولقد تحاش التحليل النفسي أن الذات الفردية هي حصيلة سبق اجتماعي بكل تناقضاته ،وراح يروج لمقولات ذات طابع تعميمي مثل اللاوعي و الأعصاب و الجنون و العقد النفسية،كأن الذات عالم مغلق متعال عن الديناميكية الاجتماعية .

و–الفلسفة الوجودية:

الوجودية هي فلسفة الحرية و المصير الفردي ،فقد تأسست على مقولات كبرى مثل الحرية و المسؤولية و القلق والمصير ،وموقف الإنسان من العالم ،وطرحت نفسها فلسفة عملية غايتها تحقيق الخلاص الفردي.

اختلفت الوجودية عن الماركسية في :

_ الرؤية الفردية في مقابل البنية الاجتماعية.

_تصور التاريخ، فهو عند الماركسيين تاريخ الصراع الطبقي و التناقضات القائمة بين قوى الإنتاج و علاقاته،و الفرد هو حصيلة هذه البنية ، بل هو سجين هذا النسق ،أما التاريخ عند الوجوديين فهو الاختيار الحر للفرد ،و بالتالي كان هناك صراع بين الفلسفتين. و قد انتهى الأولى إلى العبثية مع كامي القائمة على القلق و الانتحار الفلسفي و الغثيان و الاغتراب ، و غيرها من المفاهيم الانهزامية بنظر الماركسيين .

ز–البنوية:

لاحظ "روجيه غارودي" أن الماركسية تحمل بذورا بنوية ،ففي إحدى أطروحاته يؤكد ماركس أن الفرد هو مجموع علاقاته الاجتماعية ، أي حصيلة نسق مغلق هو عنصر من عناصره .

ولقد طوعت الماركسية البنوية ،و كان ذلك على يد "لويس ألتوسير" الذي أكد على فكرة الصراع الطبقي ليس باعتباره مقولة تاريخية ،و لكن بوصفها مفهوما مجددا ،وعلاقة بنوية تحوي الذات في مسار متشابك وحتمي ، و عليه فليست الذات أو حتى الجماهير هي التي تصنع التاريخ ،و إنما هذه العلاقة هي التي تحركه.